فك التشفير

الوجه الآخر للوردي .. فوبيا السياسة والدين

ياس خضير البياتي

الامارات

قبل التحاقي في قسم الاجتماع عام 1968 ،كنت قد قرأت عدة كتب لعالم الاجتماع العراقي الكبير علي الوردي ، ونظريته للشخصية العراقية بخصوص(ازدواجية الشخصية)،يومها كانت لي افكارا تتعارض مع مضامين كتبه بشأن اعتماده على المنهج التاريخي ،كما فعل بن خلدون، في تفسير الظواهر الاجتماعية ،وتكراره الممل لنظرية الازدواجية الشخصية ،وطريقة عرضه للأفكار التي لا تعتمد على التحليل ،وانما الاكتفاء بالعرض ،وتعميمه لنشأة الظواهر الاجتماعية والتاريخية ،وربما كانت هذه الافكار غير منسجمة مع مصادر ثقافتي المتناقضة ،وأتذكر انني لمجرد رؤية اسمي ضمن المقبولين في قسم الاجتماع تذكرت الوردي فقط ،وحلم اللقاء به ،ومعرفة افكاره عن قرب ،وطريقة تدريسه ،وشخصيته الحقيقية ومدى تطابقها مع افكاره وسلوكه. كانت الصورة التي تشكلت في ذهني للوردي هي الصورة التي اراها في الصحف والكتب، وهي صورة تقليدية ونمطية ومكررة، وكانت رغبتي تزداد لرؤيته في الدرس، ولا أدرى لماذا شعرت بخفقان القلب تتسارع مع موعد دخوله للقاعة الدراسية، وكأنني مقبل على امتحان دراسي او محاكمة لإعلان الحكم، حتى هدأت النفس بعد دخوله القاعة وصعوده على المنصة، وبدأ الدرس الاول على موضوع المجتمع العراقي وشخصية الانسان العراقي. كان الوردي قصير القامة ، وبنظارة حمراء كبيرة غامقة تكاد لا ترى عينيه الا بصعوبة ، وحقيبة حمراء تشعر ان جسده يميل الى الجهة التي يحملها بسبب حجمها الكبير وثقل ما موجود فيها من الكتب ،و(سدارة)بغدادية سوداء يلبسها في الرأس حتى يشعرك بتميز شكله واناقته عن باقي اساتذة القسم .اما طريقة تدريسه فقد كانت اكثر اثارة وغرابة ،فقد كان صوته يعلو بقوة مع حركات (بهلوانية) غير معتادة في قاعات الدرس ، وكان يمزج المحاضرة بالجد والهزل ،والبساطة التي تصل الى شكل (الحدوته).كان مستمعا جيدا ، ويحب الاستماع الى القصص والحكايات الشعبية العراقية من الطلبة ،وكأنه يريد استثمارها في كتاب جديد .اما انا فقد كنت اراقب شخصيته وحركاته التي ابعدتني عن التركيز عن موضوع المحاضرة الاولى . اما المحاضرة الثانية فقد كانت من المحاضرات المثيرة التي كانت تمثل ولادة تصادم الرغبات والعلاقات والمشاكسات والحوارات ، ولأول مرة بدأت اناقش الوردي في افكاره بندية ، حيث بدأتها بمناقشات عن الشخصية العراقية بطريقة لا تتفق مع رؤية الوردي وطروحاته الاجتماعية ،وهو الامر الذي شجعني ايضا ان ابدأ معه في الحديث عن (اللاشعور) استنادا على ما طرحه في كتابه (خوارق اللاشعور) وتأثيرها على بناء الشخصية .

عيار ثقيل

وقتها شعر الوردي بمفاجأة من العيار الثقيل بأنه امام طلبة غير عاديين ،خاصة في المرحلة الاولى من الدراسة، بل كان يظن كما عرفنا منه لاحقا في بيته بالكاظمية ،بأننا مرسلون من الدولة لاستفزازه والايقاع به ،خاصة وانه كان له فوبيا سياسية من الدولة آنذاك ،وخاصة بفوبيا البعث. ما الجانب الثاني من المحاضرة فقد أخذ منحى آخر من الهزل والضحك، فقد كان الوردي ممثلا بارعا في الحركات اثناء المحاضرة، فقد فاجأنا عند الحديث عن المجتمع الحضري انه نزل من المنصة وبدأ يرقص الباليه بحركاته المعروفة، حتى كانت ضحكات الطلبة تصل الى الطابق السفلي من بناية كلية الآداب. كان من حسن حظي ان استاذي الوردي درسني لمدة عامين ،وكانت هذه التجربة الثرية قد جعلتني اشعر بقدرات الرجل ومثابرته العلمية ،وشخصيته النادرة ،رغم انني كنت اميل الى محاضرات د. عبد الجليل الطاهر العميقة في رؤيتها ومنهجها وتنوعها الفكري ،وكان الطلبة بشكل عام يميلون الى محاضرات الوردي ويحرصون على حضورها ،لأنها كانت بسيطة وشعبوية وسلسة، بينما كنت اميل الى الطاهر، رغم انها كانت عميقة وجادة ،لكن هذا لا يعني بأن محاضرات الوردي لم تستهويني ،بل العكس كانت محطات متنوعة تمزج بين جدية العلم وتجارب المحاضر ،وبين بساطة وعذوبة المعلومات، وقربها من حاجاتنا كشباب ، أضافة الى ديناميكية اسلوب المحاضرة بين الجد والهزل والمشاكسات واثبات الوجود ! لكن الحقيقة المرة ان محاضرات الوردي لمدة عامين كانت مكررة برؤيتها وموضوعاتها المتعلقة ب (الازدواجية الشخصية العراقية) و(الصراع بين البداوة والحضارة) و(التناشز الاجتماعي) وبالذات شخصية (ملا عليوي)، حتى أصبحت نشيدا علميا لطلبة قسم الاجتماع في بداية السبعينات. لم تنقطع مشاكستي للوردي في قاعات الدرس، بل امتدت الى مكتبه في الكلية، وبيته الكائن في الكاظمية، وبدأ يثق بي كثيرا عندما عرف بأنني لست حزبيا آنذاك، وبدأ يسرد لي افكاره الصريحة، منتقدا الفكر البعثي والقومي والشيوعي وقال انهم جزء من امراض المجتمع ويمارسون ازدواجية رهيبة بين نظرياتهم وممارساتهم في ميدان الحياة والسياسة، بل فاجأني في احدى المرات بنصيحة مازالت في ذاكرتي (انت شاب نظيف ومثقف ...ابعد عن هذه الاحزاب المريضة لأنها ستكون وبالا كبيرا على العراق)،ثم ذهب وجلب لي من مكتبته كتاب باللغة الإنكليزية ،وبدأ يسرد لي مضمونه، مركزا على فقرات بعينها التي تؤكد ان الغرب لا يجد املا في العرب لأن نوازعهم دينية وعشائرية ،ولابد من اخراجهم من خريطة العالم . وقتها لم اعر اهتماما للموضوع ،لكنه فاجأني بالقول: المجتمعات العربية ستمر بأتعس ايامها خلال المرحلة القادمة،وستكون الأحزاب العربية والأحزاب الدينية وبالا على المجتمع لأن افكارها كاذبة ومتناقضة مع الواقع .انني أخاف ،والكلام له ،ان هذه المجتمعات ستعود الى الوراء مائة عام الى الوراء عكس التيار العقلاني في العالم. ومما قاله للتاريخ، ان الحزب الشيوعي كان له فرصة ان ينمو وتتسع قاعدته، لكنني لااجد املا لمستقبله، لأن قياداتهم (يتكلمون حلو، ويدغدغون قلوب الناس، لكن ممارساتهم غير شيوعية). وكان أكثر ما يثيره ويستفزه رجال الدين، وعاظ السلطة كما يطلق عليهم، فقد كان يطلق عليهم عبارة غريبة (هذوله حرامية الدين والدنيا).

افكار متدفقة

كانت جلساتي معه طويلة ،وافكاره متدفقة ، لكنه كان لديه فوبيا سياسية قوية تصل الى الشك والخوف ،وكان يطلب مني حد التوسل ان لا اكتب ما يدور بيننا ،ويقول لي (خليني ارجع الى بغداد بسلامات واخلص من مشاكل البعثيين) لقد عملت له أكثر من لقاء صحفي ،احدهم نشر في مجلة (الأحد البيروتية) والآخر في مجلة (العاملون في النفط)، وكان من فضائل (الأفندي) الذي يحب ان يطلق عليه كما قال لي ،انه لا يعير للنقد اهمية ،ولاينزعج منه ،ويحترم الرأي الآخر ،بل يكتفي بالقول ويكره (أنه يشبه السمك مأكول ومذموم) .ولم تنقطع علاقتي معه ،حتى التقيته أكثر من مرة في بودابست عاصمة هنغاريا ،مكان دراستي ،ومرة واحدة في وراشو عاصمة بولونيا في منتصف الثمانينات ،وهو آخر لقاء ،وآخر مشاكسة علمية مع الانسان والمعلم الذي حورب في حياته ،ومات مهموما ،ومنبوذا من السلطات السياسية والاحزاب، وشغل الناس والنخب بأفكاره المثيرة ،وفأسه النقدي لتحطيم الطوطمية الوهمية، وافكاره الاستشرافية التي توقع فيها أن تكون (غنية) كاستعارة لأسم العراق مطمع الجميع، والكل يريد الزواج منها على فقه طوائفهم ،ليس حبا بها ،وانما طمعا بثرواتها وكنوزها ،وأن العراق سيمر في (مد وجزر)، وسيكون بلد العشائر والطوائف والقوميات بامتياز. كم كنت اتمنى ان يكون (الأفندي) المعلم شاهدا على شخصياته في مشهد العراق الحالي، ليرى (غنية) الجميلة والثرية كيف يتم تدميرها، وتسرق مجوهراتها وثرواتها من ابناء جلدتها، وكيف أصبح حال (ملا عليوي) العراقي المهموم بالحزن الابدي، مريضا بالطائفية والعشائرية، وبداء ارتفاع منسوب الازدواجية، وأمراض كوليسترول التلوين، والانتهازية والنفاق!

قراءة في كتاب (أصل الدين) لفيورباخ

الطبيعة والإنسان والوجود

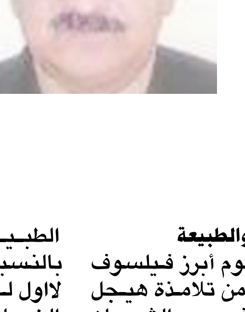

علي محمد اليوسف

الموصل

فويرباخ والطبيعة

فويرباخ كما معلوم أبرز فيلسوف أنشق مع آخرين من تلامذة هيجل واطلقوا على أنفسهم الشبان اليساريين الهيجليين،منهم ماركس وانجلز وباور وشتيرنر وشتراوس وغيرهم.وربما يكون اهم انجاز فلسفي تركه فويرباخ هو كتبه الثلاث(أصل الدين)و(جوهرالدين او المسيحية) و(جوهر الايمان) في محاولته تثبيت نزعته الدينية الالحادية وشرح فلسفته في نشأة الدين عن الطبيعة واغتراب الانسان . الا ان هناك من يذهب الى أن فيورباخ لم يكن ملحدا مثل برديائيف وجون لويس اذ يقول عنه هذا الاخير:ان فيورباخ كان رجلا متدينًا الى أبعد الحدود، ومن ثم فان ماديته مختلفة تماما عن أية مادية سابقة عليه، فهو لا يحقّر الدين وانما يرى الله اسقاطا لحالة الانسان البائسة. عمد فويرباخ أن يجعل من الطبيعة منشأ الدين،وينصّب الانسان (الها) بها ومن خلالها وعليها،فهو جعل الانسان يقدّس ويؤله الطبيعة بتأملاته الخيالية والميتافيزيقية المحدودة أدراكيا عقليا،وأن يعتبر (الانسان) دون وعي منه، الطبيعة بكل ماتمتلكه من ظواهروهيئات وتنوعات جغرافية وبيئية وتضاريس وانهار وجبال وحيوانات ما هي الا (الاله) الذي يحتاجه روحيا وماديا ايضا في تعليل اسباب وجوده او المساعدة في ايجاد حلول لجميع المشكلات التي تعترضه والظواهر والموجودات الاخرى في الطبيعة التي تجاوره وتحيط به ويتعايش معها من حيوان ونبات. جعل فيورباخ من الطبيعة والانسان والله، الها واحدا هو الانسان،ليس على وفق مشابهات فلاسفة وحدة الوجود الصوفية ، الها متسيّدا الطبيعة من جهة، وشبحا الهيا لاله متعالي لا في ما وراء الطبيعة لا يدركه لكنه يحتاجه،ليقوده الى الاذعان بما يخلع عليه من ذاته، صفات يتمناها في احتياجاته وحياته، اله يقوم بالرضوخ له وتقديسه وعبادته والخوف من غضبه، ذلكم هو الاله المتخيّل إنسانيا وجوديا في الطبيعة وليس خارجها، يرتبط الانسان بآلهته بعلاقة روحية غيرواعية ومدركة يجسّدهاارتباطه الروحي بالطبيعة وليس ارتباطه الروحي الى ماوراء الطبيعة، فهذه العلاقة الميتافيزيقة التعبدية لم يكن يبلغها الانسان آنذاك الا بعد مراحل تاريخية طويلة ،انبثقت لاحقا في الديانة السحرية والطوطمية والميثولوجية والاسطورية ومن ثم في مراحل لاحقة الأديان الوثنية التي قادت البشرية الى الأديان التوحيدية. وفي معرض دفاعه انه لم يكن يدعو الى أن الانسان هو (اله) من غير أسبقية الطبيعة عليه يقول فيورباخ:(ولكن الرأي عندي ان الكائن الذي هو شرط مسبّق للانسان انما هو الطبيعة، وان كينونة الطبيعة بالنسبة لي، الكينونة الازلية التي لاول لها، انها الكائن الاول في الزمان وليس في المرتبة، فهي الكائن الفيزيقي وليس الاخلاقي)1 ويؤكد فويرباخ(ان الطبيعة هي الموضوع الاصلي للدين، كما يبرهن على ذلك تاريخ كل الديانات والامم، فالتاكيد بان الدين فطري بالنسبة للانسان زائف اذا تطابق مع الثيولوجي، ويكون صحيحا تماما اذا كان الدين هو الشعور - شعور الانسان - بالتبعية الذي يدرك فيه انه لا يستطيع الوجود بدون كائن اخر مختلف عنه في كيفياته وصفاته، واذا فهمنا الدين هكذا، فان الطبيعة للانسان ضرورة النور للعين والهواء للرئتين ، والطعام للمعدة، باختصار الانسان كائن يعتمد على الطبيعة).2 ان تعلق فيرباخ بالطبيعة والانسان يكاد يكون عصابا مرضيا عنده ، ان لم يكن هو اعلى افصاحات التدّين التصوفي العميق،وصفات النقاء الروحي التي لا يمكن ان يتصّف بها فيلسوف عرف عنه الحاده، ففي رسالة ارسلها الى والده عام 1824 بعد هجره دراسة اللاهوت كتب فيها(لقد هجرت اللاهوت ليس عبثا،او استهتارا، او كرها، ولكن لانه لا يشبعني ولا يعطيني ما أحتاج اليه ولا أستطيع الاستغناء عنه، أود أن أضم الطبيعة الى قلبي، تلك التي يرتد عن اعماقها رجال اللاهوت الجبناء)3 . الطبيعة الارضية الحسّية الحيّة التي وجد الانسان نفسه مقذوفا بها كوجود من غير ارادته مع باقي المخلوقات والمكونات الطبيعية والحياتية النباتية والحيوانية والجمادية،وسط اشكال وظاهرات متنوعة ،اشجار ونباتات وجبال عملاقة وصخوروانهار وبيئة متنوعة وغير ذلك.وكان محتّما ومحكوما على الانسان ان يتكيّف ويتعايش مع هذه الطبيعة شاء أم أبى، ويتماشى مع مراحل تطورها التاريخي،محاولا فهم صفاتها وقوانينها وكيفية التعامل والتكيّف والتعايش معها. كتب فويرباخ في كتابه جوهر الدين: (الاعتماد الحيواني على الطبيعة - يقصد اعتماد الانسان والحيوان على السواء - هو اعتماد غير واع - يقصد سطحي عفوي - لكن بارتفاعه الى الوعي التخييلي - يقصد عند الانسان فقط - وعند التفكير فيه والاعتراف به يصبح دينا)5 . وبالعودة لمناقشة وتوضيح عبارة فيورباخ حول النزعة الاعتمادية الحيوانية على الطبيعة من قبل الانسان والحيوان،ان علاقة الرضوخ والاذعان الانساني للطبيعة وان التقت مع النزعة الاذعانية في صفتها (الحيوانية) كما هي عند الحيوان، الا انها تختلف عند الانسان في الكيف عن الحيوان اي في نوعيتها على مستوين نناقشهما اشار فيورباخ لاحدهما تلميحا فلسفيا ضمنيا ، مامعناه ان كلا الاذعانين عند الانسان والحيوان للطبيعة غير ادراكي غير معقلن،لكن حين يتحول الى وعي ذاتي مفارق عند الانسان المتحرر من هيمنة الطبيعة، فان ذلك الوعي الخيالي يصبح(دينا) إنسانيا لايعيه ولا يفتقد أهميته الحيوان. ومن جهة ثانية من جانبنا نؤكد ان (حيوانية) الاذعان في علاقة أعتماد الانسان والحيوان على الطبيعة في تأمين احتياجاتهما للغذاء والبقاء والحياة، وان اختلفت الوسائل بين الانسان والحيوان، فهي علاقة انسانية مفارقة عن مثيلتها في اذعان الانسان للطبيعة، مقارنة بالحيوان ، ففي الوقت الذي يكون الحيوان في اعتماده الطبيعة لتأمين احتياجاته، نجده يرتبط في علاقة تكيّف سلبي بالطبيعة انه يعيش ليأكل فقط،ويهادن الظواهر الطبيعية ولا يرغب من الطبيعة بأكثر من تأمين الطعام له وادامة حياته. بينما نجد تكيّف الانسان مع الطبيعة، ومؤانسته بها انها توّفر له احتياجات العيش والحياة كما هي توفرها للحيوان، لكن بفارق واختلاف جوهري كبير جدا،فرغبة الانسان تفارق الحيوان بما نطلق عليه التكيّف الايجابي غير المنقاد للطبيعة، بمعنى أن الانسان لا يكتفي من الطبيعة بتأمين حاجاته الاساسية لأدامة حياته وتامين الغذاء له وحسب، وانما يرغب السيطرة على الطبيعة وقيادتها لها لا كما تقود هي الحيوان من دون وعي مدرك لكليهما اذ ان الوعي المتبادل بين الطبيعة والحيوان لا وجود له.،فالطبيعة والحيوان لا يدركان عقليا ميزة يمتلكها الانسان وحده انه يعي ذاته ويعي الحيوان ويعي الطبيعة وجميع المخلوقات بوعي ذكي ومعقلن......عند هذا التمفصل الجوهري المفارق الذي تجاوزه فيورباخ ضمنا أم عمدا، وعلاقته الارتباطية الوثيقة بنشأة الدين نأتي لتوضيحه اكثر أهمله فيورباخ. في التمفصل الذي ذكرناه ينتهي دور الطبيعة ان تكون كما اشار واعتمده فيورباخ، هي الملهمة للانسان روحيا، ومصدر وحيد لنشأة الدين عند الانسان. وفي توضيح مقارن بسيط نجد الانسان يشترك مع الحيوان في امتلاك (العقل) في وعي ذاتيته الإنسانية كجنس باختلاف جوهري ونوعي كبير، هو ان عقل الحيوان يفتقد خاصيتين يحتازهما ويتمايز بهما عقل الانسان من دون الحيوان، هما خاصيتي (الذكاء والخيال) مضافا لهما في مراحل متقدمة من وجوده قدرته على اختراع الانسان لغة التخاطب مع غيره من البشر كنوع مفارق لحياة الحيوان. وطبعا نحن لا نقصد بالعقل هنا امتلاك الانسان ملكة الادراك و التفكيرالعقلاني التي ايضا لا يمتلكها الحيوان، وانما قصدنا العقل المحسوس العجينة الرمادية المتكوّنة من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل، هذه الكتلة العجينية موجودة في جمجمتي كل من الانسان والحيوان لكن باختلافات جعلت من الانسان نوعا متفردا بخصائص لا يمتلكها أي كائن على الارض.وبهذه الخاصية الانسانية كان الانسان (دينيا) دون سائر المخلوقات كما هو اجتماعيا في العيش المشترك في استخدامه اللغة باشكالها البسيطة. معلوم بما لا يحتاج منا التوكيد أن عقل وتفكير الحيوان في تكيّفه السلبي مع الطبيعة التي يدركها(حسّيا) فقط، في وقت نجد وجود الانسان في الطبيعة على وفق علاقة اصطراعية احتدامية في سعي الانسان والى وقتنا الحاضر هاجسه الكبير هو كيفية تطويع الطبيعة والسيطرة عليها، ومؤخرا في عصور العلم والحضارة، اخذ الانسان يسعى لاكتشاف القوانين الطبيعية من اجل رفاهيته وراحته وسعادته. وبقي تكيّف الحيوان الطوعي مع الطبيعة، في بقائه حيوانا غير مفكّر ولا عقلانيّ ولا خياليّ ولا متأمل ولا ديني. أما كون الانسان متأملا عقلانيا ذكيا خياليا فهذا جعله كائنا دينيا متفرّدا، يمتلك الصفات التي تؤهله التفكير الخيالي خارج ابعاد الطبيعة، وهذا الوعي الخيالي يرتفع به مرتبة أعلى من الطبيعة، فهو غير متكيّف معها بما تمليه عليه ، بل هو في علاقة احتدامية غير منقادة معها، في بحثه الدؤوب عن خالق يمتلك صفات الطبيعة جميعها، كائن يمتلك قدرات اعجازية غير منظورة تملي عليه وجوب الانقياد له، وليس للطبيعة ذات القدرات المحدودة العاجزة في منع الحوادث والاخطار والبراكين والزلازل والموت وغيرها،صفات يتمناها أن تكون غيره يمتلكها لتجعل منه كائنا يتوّسله في حياته التي يرغبها اكثر أمانا واكثر طمأنينية بعيدة عن الخوف الذي يتهدد وجوده، حياة في أسمى معانيها وصفاتها.

اغتراب الذات

لقّب فويرباخ بانه صاحب منهج فلسفي مادي تصوفي او تأملي ذاتي، (البعض ينعت فويرباخ فيلسوف الذات فهو عالج موضوعة اغتراب الذات فلسفيا في سبق فلسفي يحسب له) ومن الماركسيين المحدثين الذين ينكرون التأثير المادي لفويرباخ على ماركس، بنفس معيار انكارهم الجدل الهيجلي على اعتباره هو الآخر مثاليا تجريديا تأمليا،واقفا على رأسه بدلا من قدميه، علما ان جميع دارسي وباحثي الماركسية يذهبون الى أن المادية الفويرباخية والجدل او الديالكتيك الهيجلي كانتا دعامتا الديالكتيكية المادية ، والجدل المادي التاريخي الذي اعتمدهما ماركس في صياغته قوانين تطور المادة والتاريخ، بعد تخليصه مادية فويرباخ من تصوّفها التأملي الديني، وتخليص الجدل الهيجلي من مثاليته المقلوبة. المهم أن هذا ليس موضوعنا،لكن لا يمكن لأحد نكران أن المعارف والفلسفات وحتى العلوم الانسانية،هي تراكم معرفي وحضاري تاريخي محكوم بالكم والكيف، في تقادم زمني لا يلغي تماما جهد السابقين على اللاحقين تاريخيا، مهما اعتور وشاب تلك المسيرة من النقد والمراجعة والحذف والتفسير والتفنيد ..الخ.كما يتعذر ولادة معارف علمية أو فلسفية من فراغ سابق عليهما. واذا سمحنا لانفسنا اسقاط الفهم الحداثي وما بعد الحداثي على اي نص مكتوب ،فهو بحسب رولان بارت في مقولته الشهيرة موت المؤلف ، في ردّه كل نص الى تناصه المتعالق مع سابقاته من النصوص من جهة ،ومن جهة اخرى فأن النص بعد كتابته و نشره يصبح ملكا صرفا للقاريء المتلقي، او بالأحرى المتلقين الآخرين في تعدد وتنوع قراءآتهم للنص.وهو ما ينطبق على كل نص تداولي مكتوب سواء في الثقافة او المعارف او الفلسفة او السرديات الكبرى كالايديولوجيا والتاريخ الخ. ويؤكد البرتو ايكو هذا المعنى لدى بارت قائلا(ان بارت يقوم بتفريق هام بين نص القراءة، الذي يستهلكه القاريء، والذي يمنح نفسه للقاريء بلا مشّقة،ومن ثم يقوم بترسيخ العادة والمألوف، وبين نص الكتابة الذي يقوم القاريء بكتابته مرة اخرى، ومرات عديدة في كل قراءة اخرى جديدة). يقول ماركس في عبارته المتعالقة مع فويرباخ:(ان الدين باق معنا ،في بقاء الاسباب التي أدّت الى نشوئه) 4.لا نجانب الصواب حين نرد وننسب التقاء ماركس وفويرباخ في نشأة المسألة الدينية لديهما في اشتراكهما ليس في طبيعة (الحادهما) وحسب ، وانما في طبيعة نسبة مصدر الدين ومنبع وسبب نشوئه الى الطبيعة ذاتها والانسان ذاته ايضا.معتبرين الدين من صنع الانسان وصنع الطبيعة معا.اذ يقول فيورباخ بهذا المعنى (ان عبادة الله تعتمد على عبادة الانسان لنفسه).

اللغة والطبيعة ونزعة التدّين

يذكر احد الفلاسفة في معرض حديثه عن تعالق الدين واللغة عند الفيلسوف بروديكوس، ان الانسان البدائي والذي بدا له ان كثيرا من الظواهر الطبيعية معادية له، ومع ذلك كان معجبا جدا بالهبات التي تزوده بها الطبيعة لتسهيل حياته ورفاهيته.هذه الطبيعة المادية في مجموع تكويناتها وتنوعاتها الارضية، لم تكن طبيعة جامدة (روحيا) بمعنى الثبات والسكون الفيزيقي والبايولوجي الذي يعدم تساؤلات ما وراءها ، تساؤلات الانسان الكائن النوعي في ذكائه المتفرد به عن باقي المخلوقات والكائنات (عقليا – روحيا) خياليا تأمليا ميتافيزيقيا الى ماوراء ظواهر الطبيعة. في هذا التأمل الروحاني البسيط ،حسب فويرباخ أخذ الانسان يخلع على الطبيعة، بعضا من خصائصه الذاتية ،ليصل بعدها خطوة او مرحلة متقدمة في(تأليه) اغترابه عن الطبيعة،متصوّرا أن قدراتها وما تمتلكه الطبيعة من صفات لا يمتلكها هو تجعله بالضرورة يجعل منها كائنا يفوقه بالقدرة والمكانة، ويستوجب عليه تقديسه واعتباره(الها) له يعبده ويعمل بجميع الوسائل كسب مرضاته ووقايته من الحاق ضرره(العفوي) المقصود به في كل خوارق العواصف والزلازل والفياضانات وهكذا في كل ما يهدد حياته ووجوده.هنا بدأ الانسان يفهم ان الطبيعة الأله، تمتلك وتستطيع فعل كل ما يعجز عنه تفكيره ان يفعله ويعمله، في وجوده المادي الحسّي والروحي على السواء. ان تفسير فويرباخ (الوهية) الطبيعة المتخيّلة والمصنّعة انسانيا ذاتيا، هو ان(الانسان وضع اسمى خصائصه الانسانية، ماهيته،او جوهره في الطبيعة فقدسّها، ثم خلع عليها صفات وقدرات الالوهية في تجريدها من عينيتها اي واقعيتها المادية، ومن ثم رفعها الى السماء، وسماها(الله) بلغات مختلفة وكيفيات مختلفة ورموز مختلفة وخصائص مختلفة وهيئات مختلفة.)6 واضح ان منشأ الدين لدى فويرباخ هو الطبيعة، ويعتبر الانسان الديني هنا، انما يتعامل مع (الطبيعة - الدين) من خلال ذاته، كذات عقلانية مدركة للطبيعة والمحيط وتعي اغترابها عنهما معا(اغتراب ذاتي واغتراب عن الطبيعة). وبالتالي فان (اله) الانسان لا يعكس سوى حالته فقط ، ذاتيته، وجوهره المتفرد الخاص به وحده دون غيره من الكائنات. تأسيسا على ما ذكرناه يعتبر فويرباخ الطبيعة المبتدأ الاول والمنتهى الاخير لفهم نشوء الدين، لذا تكون تبعية الانسان لحاجة التدين ، هي لاشعوره الدفين بتبعيته للطبيعة التي لا يستطيع تصوّر الحياة من دونها وما توفره له من اسباب العيش والبقاء.من المعلوم جيداً ان جدل الانسان مع الطبيعة يقوم على جوهر ومرتكز(أنسنة) الانسان لها،ومحاولته السيطرة على بعض تجلياتها وتسخيرها لمنفعته، أو محاولة اكتشاف بعض قوانينها الطبيعية التي تعمل بمعزل عن رغباته ووجوده ومحاولته الاستفادة منها في تمشية حياته والتكيّف مع الطبيعة. فالانسان الذي يصطدم بالقدرة الكلية للطبيعة، والاحتدام معها، يسقط على الطبيعة رغبة الانتصار عليها وتحقيق رغباته واحتياجاته منها، والانسان لا يتكيّف مع الطبيعة تكّيفا سلبيا معها كما يفعل الحيوان، بل يكون تكيّفه مع الطبيعة بمقدار استجابتها تحقيق ما يرغبه منها وتمنحه له وتديم بقاؤه في الحياة. بالمقابل الجدلي المناقض للانسان نجده في سعي الطبيعة، تطبيع الانسان على التكيّف معها في مقابل محاولته هو أنسنتها، في افتراض واقعي علمي ان جدل التناقض في قطبيه الانسان والطبيعة لا يعيان ادراكيا تضادهما الجدلي ولا حتى النتائج المتولدة منه والمفصحة عنه.الجدل والتضاد بينهما في قانون الماركسية وحدة وصراع الأضداد الذي يحكم المادة والتاريخ والوجود عامة. انه من المفهوم جيدا ان جدل الانسان في محاولته انسنة الطبيعة يقوم على خاصيتين يمتلكهما الانسان وتفتقدهما الطبيعة وهما عاملي (الذكاء واللغة)، لذا بالامكان ترجيح جدل التضاد بين الانسان والطبيعة في صالح الانسان وليس الطبيعة وهو ما ثبت انثروبولوجيا وعلميا في التطور التاريخي والحضاري للانسان. ثم اضيفت للانسان قدرات اضافية لا تجاريه فيها الطبيعة مثل انتصاب القامة واستعمال اليد بمساعدة اصبع الابهام الذي لا تمتلكه سائر الحيوانات، وفي مرحلة متقدمة جدا اخترع الانسان اللغة مع دخوله عصر الزراعة ، عصر صنع الحضارة الانسانية.(عصر الزراعة سبعة الاف سنة قبل الميلاد، وعصر اختراع الكتابة بحدود (2200 - 2300) ق.م.× نعود لنكمل مع فيورباخ(اذا كان الانسان يؤمن بكائن مختلف مستقل عنه، والذي ليست له طبيعة بشرية، وليست له صفات بشرية، فان ذلك الكائن ليس شيئا سوى الطبيعة في الحقيقة، وان كل الاسماء التي يمنحها هذا الانسان لكائن متخيّل ما هي في الاصل الا سمات الطبيعة ذاتها).7 ويمضي قائلا في تأليهه الطبيعة(انه اذا كان الله بنظر اللاهوتيين عبارة عن كائن خالد لا يفنى، فانه لا يوجد في الحقيقة كائن خالد سوى الطبيعة، حيث يموت جيل ويعقبه جيل آخر، في حين نجد أن الارض، الشمس، الماء خالدين الى الابد) 8 .كما يرى فويرباخ أن جوهر الدين هو جوهر الانسان،وماهية الدين هي ماهية الانسان نفسه، وبهذا المعنى فان فويرباخ بحسب الاستاذ الباحث جاد الكريم الجباعي (لا يؤسس للالحاد، بل يؤسس الدين برده الى اصله(الانسان) وعلة وسبب نشوء الدين هو اغتراب الانسان الذاتي واغترابه عن الطبيعة معا)9 . وبهذا الفهم الاغترابي الادماجي المركّب حسب فويرباخ يصبح كلا من الانسان والطبيعة والاله المصنّع خياليا ميتافيزيقيا(الها واحدا) متمثلا في محورية ومركزية الانسان وليس الطبيعة ولا اله ما وراء الطبيعة. من الواضح ان فويرباخ جعل قدم واسبقية الوهية الطبيعة متقدمة على الوهية الانسان لئلا يقع في التفسير المثالي الذي تحاشاه وهو ان الطبيعةالالهية والاله الميتافيزيقي كلاهما من صنع الانسان،وبهذا المنطق المثالي الذي تحاشاه فويرباخ يكون ابقى الطبيعة وجودا ماديا بمعزل عن كل وجميع رغائب الانسان وذهب الى ان الطبيعة منشأ الدين وليس الدين من صنع وخلق الانسان المحض.متجاهلا ان حقيقة التفسير العقلي المنطقي بغض النظر عن ماديته أو مثاليته يذهب الى ان الطبيعة وحدها لا تستطيع صنع دينها بنفسها لولا توّسل الانسان بها وقيادته هو للطبيعة وليس العكس.عندها يصبح التفسير المثالي او المادي في ان الدين لم تصنعه الطبيعة بقواها الذاتية لولا توّسل الانسان بها واعتماده لها مقبولا صحيحا، وبالتالي يبطل قول فويرباخ ان الطبيعة مصدر ومنشأ الدين. وفي تحاشي فويرباخ عدم الانزلاق بهذا الفخ لجأ الى القول ان الانسان خلق تدينه من الطبيعة ولم تفرض الطبيعة دينها ان صح التعبير هي عليه .اي ان فويرباخ وقع في مأزق المراوحة بين التفكير المادي الذي يتبناه ويحمله من جانب،وبين الفهم المثالي الذي لا يقر فويرباخ الاخذ به من جانب اخر. فقد عمد الانسان تأليه الطبيعة التي يجهل خلقها ومن أوجدها، لذا فقد اعتبرت الطبيعة منذ تلك الحقب التاريخية السحيقة والى يومنا هذا ميراثا للانسان تخدم وجوده الارضي لا ينازعه بها أحد منذ انقراض الديناصورات والماموث وغيرها من الكائنات التي كانت تهدد وجوده بالانقراض. وسواء ورث الانسان الارض هبة من الخالق ام كنزا وجده مصادفة هيأته له ارادة اخرى مجهولة خفيّة في التطور البيولوجي والكوسمولوجي، فهو وجد نفسه حاكما متحكما في الكثير من امورها الغامضة او الواضحة ليكون سيّد الطبيعة. وحسب فويرباخ فان الانسان خلع على الطبيعة من صفاته رغبة منه في حل الغاز وجوده، ونضيف تماشيا مع تصور فويرباخ انه لما كانت الطبيعة عاجزة عن حمل رسالة الالوهية بما يلبي رغبات الانسان ويبعث الطمأنينة بنفسه ، فهي لا تجترح المعجزات ولا تجيب على اسئلة عقل الانسان المحيّرة ووجوده النوعي، فأن الانسان لم يمتلك سوى الارتداد الى ذاته في تصنيعه الطبيعة (الها)، الى مرحلة لم يكن يعيها جيدا انه بأمكانه ان يكون هو(الها) للطبيعة والمخلوقات الأخرى معه. وهو مانجده متحققا في مراحل تاريخية متطورة حضاريا من وجود البشرية في اعلان الانسان نفسه (الها) وحتى ليس نبيا،في الاساطير والميثولوجيا، وحتى الى عصور متقدمة معاصرة جدا في اعلان امبراطور الحبشة (اثيوبيا) هيلاسلاسي نفسه(الها) مخلصّا يعبد بحسب المعتقد الديني في (الراستفارية) عند بعض القبائل الاثيوبية غير المسيحية. بالحقيقة لم يكن يدرك الانسان ان من خصائص الاله اجتراح المعجزات عصر ذاك ، لذا كانت الوهية الانسان لا ارادية ولا عقلانية، سواء اكانت الطبيعة الها أم لم تكن، او اكان الانسان مخلوقا عبدا ام الها مرسلا ام غير مرسل. ولأن الانسان بحسب فويرباخ(كائن غير ميتافيزيقي فان تفكيره الميتافيزيقي (نقض) بمعنى السلب النفي،لفن التفكير كأنه سلب مطلق، والطبيعة له ليست الا المقابل العقلي له)8 (والكائن الذي يوجد في الفكر بالنسبة للمفكر، هو الجوهر الحقيقي، ومع هذا فانه يكون واضحا بذاته له، والكائن الذي لا يوجد في الفكر لا يمكن ان يكون جوهرا صحيحا) 10 . كما ان الذي لا يعطيه لنا الفكر بفعل التفكيركناتج تفكيري وفهم الذي هو الموضوع المادي المدرك لذاته،او الكائن المدرك وجوده خياليا (روحيا) عندها يكون المخيال الغاءا افتراضيا مطلوبا لادراك وجود الطبيعة ماديا.التي يرغب الانسان اعطاءها صفة المتعالي والمقدس والالوهية،على حساب الغاء فاعلية العقل الحسي في تحقق وجود الاشياء.على وفق قصدية روحانية دائمة التصادم والتضاد، في عجز الانسان والطبيعة معا اي الخالق الطبيعة والمخلوق الانسان العبد كليهما وجدا عجز اثبات ان الطبيعة تمتلك سمات الالوهية والمقدس في اجتراح المعجزات وتحقيق اماني العبد الانسان في درء الاخطار المحدقة به وحمايته.هذه السمات لم تكن الطبيعة تمتلكها اولا ، ولا هي(الطبيعة) ارغمت الانسان خلعها عليها، وتصنيع الانسان الهه منها وعبادته لها على وفق ما يطلبه ويتمناه لا وفق ماترغبه الطبيعة، فهي لم تكن ولن تكون مستقبلا بحاجة الى انسان روحي يستمد تدينه من الطبيعة. وفي مقولة هيجل(الدين هو أعلى صورة من صور التعبير عن الوعي الذاتي) نستطيع فهم ان ذاتية الانسان هي التي جعلت من الطبيعة الها افتراضياهو من صنع خيال الذات الانسانية في ايجاد وسيلة تخلع عليها صفات الالوهية، ويعبدها الانسان فلا يجد غير الصفات التي تتفرد بها الطبيعة ،او الصفات المشتركة بينهما، ويصنع من الطبيعة الها ماهو الا ذاته هو، التي خلعها على الطبيعة. تم هذا بواقع تفسير خيالي افتراضي ان الطبيعة قادرة ان تعطي كل متطلبات معيشة الانسان ، وبالتالي فهي تستحق التأليه الذي يحتاجه الانسان روحيا في فزعه من الموت والفناء.

الهوامش :

اعتمدت في هذه المقالة الداخلة،اقتباسا او اكثركما موجود في الهوامش من مقالة الاستاذ الباحث جاد الكريم الجباعي/الالحاد لا يقي من المثالية والغيبيات/موقع مؤمنون بلا حدود ،نيسان 2018 في عرض اراء فويرباخ كتابه اصل الدين تعريب وترجمة الاستاذ احمد عبد الحليم.

1. نقلا عن كتاب اصل الدين لفويرباخ/ محاضرات في جوهر الدين ص2
2. المصدر اعلاه نفسه نفس الصفحة.
3. المصدر مقالة الاستاذ جاد الكريم الجباعي المشار لها اعلاه.
4. المصدر اعلاه نفسه
5. المصدر اعلاه نفسه
6. المصدر اعلاه نفسه
7. نقلا عن كتاب اصل الدين لفيورباخ ص31
8. نفس المصدر السابق 34
9. نفس المصدر السابق ص 36
10. نفس المصدر السابق ص37

هذا الموضوع شائك وغير محسوم ايهما أسبق على الآخر الكتابة ام الكلام؟اذا اعتبرنا ان النقوشات والمحفورات البدائية الصورية المرسومة على جدران الكهوف هي أسبق على الكلام، قد يبدوكلامنا صحيحا، لكن تلك النقوش الصورية لا تعتبر لغة تخاطب تواصلي شفاهي،الكلام لا يشترط فيه التدوين والكتابة، اما شرط اللغة هو التواصل والتدوين معا اي الكتابة.